# التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد المزدوج ١٤٢ـ ١٤٣ صيف ـ خريف ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

المدير المسؤول

أ.د. نضال الصالح

رئيس التحرير

أ. د. علي ديـاب

مدير التحرير

أ. د. محمد موعد

هيئة التحرير

أ.د. أحمد الخضر

أ.د. بديع السيد اللحام

د. ممدوح خسارة

أ.د. وهب رومية

أمينة التحرير

حورية محمد

الإشراف والتدقيق اللغوي

أ.د. نبيل أبو عمشة

الإخراج الفني

وفاء الساطي

المراسلات باسم رئاسة التحرير

اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي،

دمشق ـ ص. ب (٣٢٣٠)

فاكس: ٦١١٧٢٤٤

البريد الإلكتروني: E-mail:aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت:

www.awu.sy

الاشتراك السنوي

| | |
|---|---|
| ـ داخل القطر للأفراد | : ١٦٠٠ ل.س |
| ـ في الأقطار العربية للأفراد | : ١٠٠٠٠ ل.س أو (٢٠٠) دولاراً أميركياً |
| ـ خارج الوطن العربي للأفراد | : ١٠٠٠٠ ل.س أو (٣٠٠) دولاراً أميركياً |
| ـ الدوائر الرسمية داخل القطر | : ٢٠٠٠ ل.س |
| ـ الدوائر الرسمية في الوطن العربي | : ١٠٠٠٠ ل.س أو (٢٥٠) دولاراً أميركياً |
| ـ الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي | : ١٥٠٠٠ ل.س أو (٣٥٠) دولاراً أميركياً |
| ـ أعضاء اتحاد الكتاب | : ٤٠٠ ل.س |

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً يدفع نقداً إلى مجلة التراث العربي

# شروط النشر في مجلة التراث العربي

١ ـ أن يكون البحث ذا صلة وثيقة بالتراث العربي .

٢ ـ جدة البحث، وتقيده بالمنهج العلمي الدقيق، والتزامه الموضوعية، والتوثيق والتخريج، والسلامة اللغوية .

٣ ـ تقديم البحث منضداً على الحاسوب، ومشفوعا بقرص مدمج (CD) فضلاً عن النسخة الورقية .

٤ ـ أن يراعي البحث علامات الترقيم، وأن لا يتجاوز الحجم مع الهوامش والمصادر والمراجع، خمساً وعشرين صفحة. وبما لا يتجاوز ستة آلاف كلمة.

٥ ـ توثيق البحث علمياً وفق الأسس المعتمدة في المجلات الجامعية السورية المحكمة، ولاسيما مجلة جامعة دمشق.

٦ ـ تقديم البحث مشفوعاً بملخص مناسب، وسيرة علمية و ذاتية لمؤلفه، تبين موقعه من الوظائف العلمية، وعنوانه.

٧. يجري تحكيم البحث، وفق الأسس المعتمدة في المجلة والمتطابقة مع المجلات الجامعية المحكمة.

٨ ـ ترتيب البحوث في كل عدد، يخضع للأسس الفنية المعتمدة في المجلة من دون مراعاة مكانة الكاتب العلمية والثقافية.

٩ ـ يمنح مؤلف البحث موافقة علمية على النشر بعد تحكيمه بناء على طلبه، مرَّة واحدة في السنة .

١٠ ـ لا تنشر المجلة الأبحاث المنشورة سابقاً، ويتعهد الباحث بذلك وفق التعهد المعلن.

١١ ـ ذكر البريد الإلكتروني لسهولة التواصل.

التوزيع في الجمهورية العربية السورية:

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات

فاكس: ٢١٢٢٥٣٢ / هاتف: ٢١٢٧٧٩٧ / ص.ب: ١٢٠٣٥

تنويه:

مدير التحرير العدد الماضي هو الدكتور عبد الكريم حسين وليس د. محمد موعد

# في هذا العدد من التراث العربي

## افتتاحية العدد


الأهمية الفكرية لطليطلة ..... أ. د. علي دياب ..... ٥

فقه اللغة بين الأصالة والحداثة ..... أ. د. محمد موعد ..... ٩


## محور الدراسات اللغوية


منهجية المدرسة التراثية في تعليم الأصوات ..... طاهر حبقة ..... ١٥

القيم الصوتية للصوائت القصيرة في الاستعمال القرآني ..... د. عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني . ٣٣

أسس التصنيف النباتي عند العرب (الأصمعي أنموذجاً) ..... د. محمد هشام النعسان ..... ٥٣

دلالة الزيادة البنيوية في القرآن (صيغة استفعل أنموذجاً) ..... د. ملاذ زليخة ..... ٦٥


## محور النقد والأدب


مقولات البيان في الفكر النقديّ القديم (بين أسئلة التّبني والرّفض) ..... د. مسالتي محمد عبد البشير..... ٨٥

الأصول الغنائية للشعر العربي ..... د. أحمد علي محمد ..... ١٠٥

آلية الاشتغال على التراث في مسرح الحكواتي العربي ..... يحيى سليم سليمان عيسى البشتاوي ... ١١٧

الوهراني وفنونه النثرية ..... أ.د. محمود سالم محمد ..... ١٤٣


## محور الفكر


قواعد المنهج عند مفكري الإسلام في دراسة الأديان ..... د. عادل سالم عطية ..... ١٧١


## محور التراجم


مؤلفون موسوعيّون جزائريّون (محمد أبو راس أنموذجاً) ..... أ. جميلة روقاب ..... ١٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقولات البيان في الفكر النقديّ القديم بين أسئلة التّبنّي والرّفض

د. مسالتي محمد عبد البشير(*)

**نتوخى في هذه الدراسة الوقوف على أبرز المقاربات المتفاعلة مع المقولات النّقديّة الجاحظيّة؛ منطلقين من رصد مواقف النّقاد، والبلاغيين القدامى من كتاب البيان والتبيين(*) بوصفه كما يقول حمادي صمود: «أهمّ مؤلفات الجاحظ الأدبيّة، وأكثرها تداولا بين النّقاد والعلماء، وأبعدها صيتا»(١)، وقد حكى لنا ابن خلدون رأي قدماء العلماء في كتاب البيان والتبيين؛ إذ يقول عند الكلام على علم الأدب: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها»(٢)، ونجد ابن رشيق يتحدث عن**

---

(*) جامعة محمد لمين دباغين- سطيف٠٢ قسم اللغة والأدب العربي.

(*) يكاد يقتصر علماء البلاغة وأهل الأدب من القدماء، أعداء للجاحظ أو أنصارا على **البيان والتبيين** يذكرونه أو ينقلون عنه. **ينظر:** ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٣٤٣، ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧. وعليه اعتمد الدارسون المحدثون في استقصاء آراء الرجل البيانية، وقد أشاروا منذ وقت مبكر عربا كانوا أو مستشرقين إلى أهميته مصدرا من مصادر البلاغة العربية **ينظر:** مثلا

Charles pellat: La formation de Gahiz et le milieu Basrien, Paris, ١٩٥٣, P٨٥.

(١) حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط٠٣، ٢٠١٠، ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق حجر عاصي، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٣، ، ص٣٤٣.

**قيمة الكتاب ويذكر فضل صاحبه في باب البيان** من كتاب العمدة(**) يقول: «وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ – وهو علامة وقته – الجهد وصنع كتابا لا يُبلغ جودة وفضلا ثم ما ادّعى إحاطة بهذا الفن لكثرته»(١). إنّ المتأمّل لتجليات الطروحات النقدية الموجودة في كتاب البيان والتبيين وامتداداتها في المصنفات المعاصرة له أو التالية، يلحظ أنّ كتاب البيان والتبيين قُرئ، رفضا وقبولا، من زاويتين، **رُفض البيان (من قبل ابن وهب) وقُبلت الفصاحة (من قبل ابن سنان)**:(٢)

**أ – قُرئ الجاحظ بالمخالفة والتخطيء** من طرف البيانيّين صراحة وضمنا؛ من القراءة الضمنية (المخالفة) السكوت عن المشروع وتعويضه فيما بعد، دون احتجاج من أحد بمفهوم ضيّق، هو علم البيان **بالمفهوم الذي حدده السكاكي**(*) وثبته من جاء بعده، احتل السكاكي أرض البيان وزرع فيها نباته وكأنها أرض خلاء، ولم ينازعه فيها أحد أمّا **القراءة بالمخالفة** الصريحة فنجد أحسن مثال لها عند **ابن وهب** الذي يرى(**) أن ما قدمه الجاحظ عن البيان لا يستجيب للمتوقع من عنوان الكتاب.

---

(**) من الطروحات/المواقف التي صاغها الجاحظ وكان لها شأن في كتاب العمدة قوله: «والاسم بلا معنى لغو كالظرف الخالي، والاسم في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح» **رسالة في الجد والهزل**، الحاجري، القاهرة، ١٩٤٣، ص٨٥، وسيؤلف ابن رشيق قولته السائرة: «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته» **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، ١٩٧٢، ١/١٢٤.

(١) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ١/٢٥٧.

(٢) **ينظر:** محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣. ص ١٣١- ١٣٤.

(*) ذلك أنّ مفهوم البيان عند السّكاكي يختلف عن مفهوم البيان عند الجاحظ كليا؛ فمفهوم السكاكي جزئيّ يتعلق بمفهوم من مفاهيم المحاكاة عند الفلاسفة العرب؛ أي جانب إنتاج الصورة اللغوية ذات البعد الحسي كالتشبيه، والاستعارة، والتمثيل، وهو ما يُعبَّر عنه اليوم في كثير من المؤلفات بما يقابل (Image) في الثقافة الغربية.

(**) لم يعرف عن المؤلّف الحقيقي لكتاب «البرهان في وجوه البيان» سوى النزر اليسير؛ فهو إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، كانت أسرته تعمل في الدواوين العباسية منذ عصر المأمون، وكان جده سليمان من الكتّاب، وتولى الوزارة للخليفتين المهتدي والمعتمد، وتوفي سنة ٢٧٢ هـ، **ينظر** شوقي ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط٩، د ت، ص٩٥، ورغم النقد الذي وجهه ابن وهب للجاحظ فإن الباحث عبد الحكيم راضي يرى أن ابن وهب تبنّى ونادى بمقولة الجاحظ المتعلقة بمبدء التوسط، مستشهدا بقولة ابن وهب عن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمي سديدا فيجعل منها: «أن لا يظن أن البلاغة إنما هي الإغراب في اللفظ والتعمق في المعنى، فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى، والبليغ ما بلغ المراد، ومن ذلك اشتقا» ويضيف «وابن وهب يتابع الجاحظ وهو ناقل عنه لا محالة مع محاولة لإعادة الصياغة» وتنكشف متابعته حسب ما يفيد به راضي من خلال قوله: «وليس ينكر مع ذلك أن يكلم أهل البادية بما في سجيتها علمه، ولا ذوو اللب، في مقدار أدبهم فهمه» ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص ٢٠٦. ويعقب راضي على قولة ابن وهب بقوله: «ونحن نذكر عبارة الجاحظ بعقب تحذيره من غرابة اللفظ، وقوله: إلا أن يكون المتكلّم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس – كما يفهم السوقي رطانة السوقي» عبد الحكيم راضي: الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، ط٣، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٤٦.

السائل/المعترض فرضا هنا هو عصر ابن وهب، وهو عصر الكتابة وتراكم المعارف، فبين موت الجاحظ وموت ابن وهب ما يقرب من ثمانين سنة.

ومن الأهميّة بمكان – قبل فحص قراءة ابن وهب للجاحظ – التوقف عند كتابه «البرهان في وجوه البيان»، نظراً إلى ما دار حوله من شكوك وملابسات حول طبيعة موضوعه.

نُشر كتاب «البرهان في وجوه البيان» لابن وهب بعنوان «نقد النّثر»، ونُسب إلى **قدامة بن جعفر**، وقام بنشره وتحقيقه **عبد الحميد العبادي** بمقدمة **لطه حسين** عن «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر»، وقد جزم **عبد الحميد العبادي** بأنّ كتاب «نقد النّثر» صحيح النسبة إلى قدامة معتمداً في ذلك على عدّة أدلة [١]، بينما كاد **طه حسين** يجزم بأنّه لا يمكن أن يكون لقدامة، وإنّما هو في الغالب لكاتب شيعي ظاهر التشيع[٢]، وقد ثبت فيما بعد أنّ كتاب «نقد النّثر» الذي نشر منسوباً إلى قدامة بن جعفر إنّما هو جزء يبلغ الثلث من كتاب «البرهان في وجوه البيان» **لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب**[٣].

والموضوع الذي يدور عليه هذا الكتاب إنّما هو «البيان»، وليس «نقد النّثر» بدليل أنّ مؤلفه يقول في مقدمته: «أمّا بعد، فإنّك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سمّاه «كتاب البيان والتبيين» وأنّك وجدت إنّما ذكر فيه أخباراً منتخلة، وخطباً منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، فكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه، وسألتني أن أذكر لك جملاً من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله... وقد ذكرت في كتابي هذا جملاً من أقسام البيان»[٤]. ونلاحظ هنا كيف تكرر لفظ «البيان» ثلاث مرات في فقرة واحدة، بالإضافة إلى أنّ الكتاب فيه حديث عن الشّعر وعن النّثر، واستشهاد بالخطابات الشّعريّة والنّثريّة على حد سواء، فالكتاب «عرض مقنن مبوب للبيان وأسسه وأنواعه وأساليبه»[٥].

من الواضح، أنّ ابن وهب يرى في كتاب الجاحظ نقصاً انتدب نفسه لتداركه بتصنيف هذا الكتاب، الّذي كانت تسميته الأصليَّة، فيما يرجح محققه، (كتاب البيان) بما يؤكد أن المؤلف قصد به إلى معارضة كتاب الجاحظ مضمونا وتسمية[٦].

---

(١) **ينظر**: نقد النثر: المنسوب إلى قدامة بن جعفر، تحقيق عبد الحميد العبادي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٢، وما بعدها من مقدمة المحقق.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩، **ينظر**: المقدمة التي صدر بها طه حسين الكتاب بعنوان "البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر".

(٣) **ينظر**: ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص ٧، (من مقدمة المحقق).

(٤) المصدر السابق، ص ٤٩ ـ ٥١ ، ونقد النثر: المنسوب إلى قدامة ، ص ٣ ـ ٥.

(٥) محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ص ٢٥٨.

(٦) يؤكد ذلك أن ابن وهب ما يفتأ يتحين الفرص للاستدراك على الجاحظ والتنبيه على القصور الّذي وسم مشروعه البياني، فلم يسلم له حتّى بتحديد البلاغة الّذي رأى فيه قصورا استدركه عليه مقدما تحديدا بديلا رآه أكثر وفاء بحد البلاغة: «وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها، وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها وحدها عندنا...»، نقد النثر، ص ٧٦.

يعد الباحث **حمادي صمود** قراءة **إسحاق بن وهب الكاتب** لمنجز الجاحظ "البيان والتبيين" **قراءة شاذّة** بوصف مؤلفاته فيما يقول **صمود**: «أهم مرجع لعلماء البلاغة تشير إليه وتنقل عنه وتشيد بفضله»[١]، ولقد قدّم الباحث قراءة طريفة لنص **ابن وهب** السابق قائلا: « وقد يُحمل هذا على تقليد معروف في الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ **فالمؤلف المتأخر يحاول أن يجد مطعنا على المتقدم حتى يقنع بضرورة كتابه**، وإلا فإنّه، على اختلاف المقاصد من التّأليف، قد انساق وراء الجاحظ وقسّم وجوه البيان قسمته وأكثر من النقل عنه»[٢]، ويضيف **صمود** مفسرا رأي ابن وهب تفسيرا ثاويا بين طياته مزية السّبق الجاحظيّ، يقول: «ثم حتى هذا التّحامل فإنّه يدل دلالة تاريخيّة ذات قيمة مفادها أنّ كتاب الجاحظ هو الكتاب الوحيد المختص بهذا الموضوع، أو أنّ له من الخصائص ما حجب كل المحاولات الأخرى – إن وجدت – مما يؤكد دور الجاحظ ومكانته في تاريخ التأليف البلاغيّ»[٣].

وما يؤكد متانة **قراءة صمود**، ما ذكره العسكري في الصناعتين يقول: «وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو لعمري كبير الفوائد، جمّ المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشّريفة، والفقر اللطيفة والخطب الرّائعة، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه الممتازة ونعوته المستحسنة»[٤].

إنّ القارئ لا يحتاج إلى نباهة كبيرة، أو تيقظ خاص، كي يستبطن الفرق بين مضموني الكتابين( أقصد كتاب البيان والتبيين، والبرهان في وجوه البيان)، فذلك بارز في مقدمتيهما؛ ففي الوقت الذي قدّم **الجاحظ** كتابه بالحديث عن **"اللسان"**، أي عن القدرة التّعبيريّة وما ينتابها من عوائق وعيوب تؤدي إلى العيّ، نجد **أنّ ابن وهب**(*) يخصص أكثر مقدمة بيانه وجوهرها للحديث عن "العقل"، منوّها به، مبينا الغريزيّ منه، والمكتسب.

وقد أدى هذا الاختلاف في زاوية النّظر إلى إدخال ابن وهب تعديلا على الخطاطة البيانيّة التي قدّمها الجاحظ لتتلاءم مع المحتوى الذي رصده لها، يقول محمد العمري: «يبدو جليا أنّ **الجاحظ** كان ينظر لموهبة العربيّ **للفصاحة** التي هي صفة مميّزة للإنسان العربيّ الأعرابيّ وهذا سر حديثه عن أنواع العيوب النطقيّة التي تفسد نطق غير العربيّ

---

(١) حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، إحالة ص١٦- ١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ن.

(٤) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، ط٢، القاهرة، ١٩٧١، ص١٠-١١.

(*) يبدو أنّ قراءة ابن وهب تخالف قراءة العسكري الذي اعترف بوجود المادة البلاغية واختلال المنهج، ويقدر البحث أنّ اختلاف القراءتين طبيعي لاختلاف مطلبَي الباحثين، ولعله من المفيد أن نشير إلى أن العسكري – وإن تبنى كثيرا من طروحات الجاحظ – أشار إلى ضعف تحكم الجاحظ في منهج التأليف، وإلى تنوع المادة وتعددها في البيان والتبيين، يقول: « إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير»، المرجع نفسه ص١١.

ومن هنا احتفاله بالبيان العربيّ المتجلّي في الخطابة فهي نموذج الكمال في الحديث الشفويّ الذي هو سليقة وموهبة عند العرب وكان ضروريّا أن يحتل الجانب الصّوتي مكانة مرموقة في كل حديث عن الكلام الشفويّ، خاصّة في جانب **الآلة**، أو فصاحة اللسان وما يتعلق بالخلو من العيوب... وفي الوقت الذي كان الجاحظ يعرض نماذج البيان العربيّ مما انتخبه من خطب الأنبياء **اتجه ابن وهب** إلى الثّقافة الفلسفيّة التي توسع مجالها في عصره خاصة في **باب الاعتبار** كما كان مشدودا إلى التّطور الذي نال النثر– بتطور جهاز الدّولة وتوسّعه وتعقّده، وتنظيم وظيفة الكتابة وحرفتها – ولذلك خص "الكتاب" أو البيان بالخط بفصل يستحق أن يكون كتابا مستقلا»[١].

فبينما يعيد **الجاحظ** أصناف الدّلالة على المعاني جميعاً من لفظ، وغير لفظ إلى خمسة أشياء: اللفظ، والإشارة، والنّصبة، والعقد، والخط، ثم يكتفي عند التحليل بالحديث عن البيان باللفظ، والإشارة، أي ما يحتاج إليه الخطيب، **يرجع ابن وهب** البيان إلى أربعة أسس متعاونة متكاملة في إنتاج المعنى وتداوله، هي: الاعتبار (ويقابل النّصبة عند الجاحظ)، والاعتقاد (ويعني به التّصور، أو حال المعرفة داخل النفس، ولا نرى له مقابلا عند الجاحظ)، والعبارة (وتقابل البيان باللفظ عند الجاحظ)، والكتاب (ويقابل الخط عند الجاحظ). يقول **ابن وهب**: «البيان على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال القلب واللّب، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بَعُد وغاب»[٢]؛ من البيّن أنّ الغائب الأساسيّ في خطاطة ابن وهب هو الإشارة (والعقد نوع من الإشارة: العد بأوضاع خاصة لأصابع اليدين). وهذا أمر طبيعي لأنّها مرتبطة عند الجاحظ بالتخاطب الشفوي، فهي عنصر مساعد للغة، والجديد/الطريف عند ابن وهب هو **الاعتقاد أو التصور** أي معالجة المعرفة عقليا، في حين أنّها معالجة عند الجاحظ لسانيّا.

وقد التزم **ابن وهب** بهذه الخطاطة فخصّص لكل ركن من الأركان المذكورة بابا من الكتاب، مع تفاوت في العناية بهذا الباب أو ذاك، وليس من أهدافنا تقويم محتوى كتاب البرهان، خاصّة من وجهة انسجام مادته، أو عدم انسجامها[*].

وهكذا، فقد أراد ابن وهب أن يؤسس مشروعاً في البيان يستدرك به على المشروع البياني الجاحظي، ومن ثم نلحظ أنّ كتابه يكشف عن رغبة كبيرة بالتقسيم والتفريع، فبعد أن قرر صاحبه في سياق حديثه عن المعرفة العقليَّة بطريقة تذكر بطريقة الجاحظ، أن «العقل حجة اللّه على خلقه والدليل لهم إلى معرفته والسبيل إلى نيل رحمته»[٣].

---

(١) محمد العمري: الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، ٢٠٠١، دط، ص٧١.

(٢) ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص٥٦.

(*) للنظر في تقويم كتاب البرهان: **ينظر**: محمد العمري: الموازنات الصوتية، ص٧١ وما بعدها، و**ينظر** أيضا محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ٠٩، ٢٠٠٩، ص٣٢- ٣٩.

(٣) نقد النثر: المنسوب إلى قدامة بن جعفر، ص ٦.

قسم العقل قسمين: موهوب ومكسوب[١].ولما كان البيان، عند ابن وهب، ترجمان العقل ودليلا عليه، فقد قسمه إلى وجوه أربعة:

١- **بيان الأشياء بذواتها:** وفي هذا الصنف من البيان تتجلى حكمة الخالق وآثار صنعته، لأنَّ الأشياء، وإن كانت صامتة جامدة، فهي (ناطقة بظاهر أحوالها) وفي ذلك مدعاة إلى (الاعتبار).

٢- **بيان يحصل بالقلب:** ولأنه يحصل في نفس المتفكر دون غيره اختص باسم (الاعتقاد).

٣- **بيان بنطق اللسان:** وهو بيان يشترك فيه الإنسان مع غيره، وقد اصطلح عليه المؤلف بـ(العبارة).

٤- **بيان بالكتاب:** يتجاوز الشاهد ليطول الغائب.

ينطلق الباحث **محمد العمري** من طرح مفاده أنّنا لا نستطيع أن نعد ابن وهب قارئاً للجاحظ قبل أن نفكّك عمل كل منهما، ونركبه يقول العمري: «وإذا نظرنا من زاوية الخطابة والبيان الخطابيّ فإنّ مشروع الجاحظ في البيان والتبيين لا يمكن أن يفهم إلا من خلال قراءة ابن وهب له، واستئنافه لمشروعه، **فابن وهب** يرى أنّ الجاحظ لم يقدّم شيئا يستحق الاعتبار في باب البيان»[٢].

ومن هنا فإن العمري يبين أنّ كتاب البيان والتبيين للجاحظ يمثل انتقالا من السؤال المعرفيّ إلى السّؤال البلاغيّ، فبالنّظر في خطة البيان والتبيين للجاحظ وفي حديثه عن أنواع الدلالة على المعاني خاصة وبالنّظر إلى ما فهمه قراؤه مثل ابن وهب، يسوّغ لنا القول بأنّ الجاحظ وصَل إلى بلاغة الخطاب الإقناعيّ من خلال البحث في المعرفة بصفة عامة؛ كيف نفهم وكيف نُفهم؟ بلاغة قوامها الاعتدال في استعمال الصّور البلاغيّة حسب الأحوال والمقامات، مع توظيف كلّ الإمكانات المسعفة واعتماد ذخيرة معرفيّة شدّيدة التنوع من النّصوص الأدبيّة والدّينيّة والأخبار والأمثال والحكم (ثقافة الخطيب).

وعليه، فقد وقف الباحث محمد العمري أمام مفهومين للبيان؛ الأوّل هو الذي ظهر عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، كمشروع طموح ولكنّه أخفق كمنجز[*]، واستأنفه ابن وهب في إطار نظريّة عربيّة لإنتاج المعرفة ومعالجتها وتداولها. والمفهوم الثاني، عند السّكاكي، وهو مفهوم جزئيّ يتعلق بمفهوم من مفاهيم المحاكاة عند

---

(١) المرجع السابق، ص ن.

(٢) محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩، ص١٣.

(*) وكأنّ العمري أراد أن يصرّح – من خلال اقتناعه بإخفاق مشروع الجاحظ – أنّ الجاحظ لم يطرح السؤال ما الذي يجعل هذا النص أحسن من هذا النص، وهو السؤال الذي تولى طرحه الجرجاني فيما بعد؛ وهو الطرح الذي تبناه حمادي صمود في سياق حديثه عن كتاب البيان والتبيين بقوله: «والمؤلّف على بينه من غزارة المادة التي يعالجها وتشعبها، **حاد الوعي** بضرورة ترسم منهج محكم يمكن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ في أبواب واضحة الفواصل متينة الروابط **إلا أنّ الانجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري** فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الصراع الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدون والتنتظيم»، حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، ص ١٤٠.

الفلاسفة العرب ؛ أي جانب إنتاج الصورة اللغوية ذات البعد الحسي كالتشبيه، والاستعارة، والتمثيل، وهو ما يُعبَّرُ عنه اليوم في كثير من المؤلفات بما يقابل (Image) في الثقافة الغربية.

ويلاحظ الباحث محمد العمري في كتابه «البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول» أنّ مصطلح البيان(**) تربع على مجال خطابيّ متميز، وأنتج لائحة مصطلحية دالة على علم جديد بداية مع الجاحظ في القرن الثّالث الهجريّ، وبخلاف البديع الذي اهتمّ بالعبارة الشّعريّة، اهتم البيان في تقدير العمري بالفهم والإفهام، وقد تدرّج الجاحظ حسب العمري من كلمة بيان إلى كلمة بلاغة، ومن كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة، وينتقل من الواحدة إلى الأخرى وكأنّما يتحدث عن الشّيء نفسه، وهنا يسجل الباحث أنّ كلمة بلاغة ظهرت عند العرب، والإغريق في الحقل نفسه ؛ أي حقل الخطابة، كما يوضّح أنّ تفرّع البلاغة عن البيان يعني تقديم الإفهام على الفهم، والخروج من نظريّة المعرفة إلى نظريّة الإقناع، والأمر كذلك فقد بيّن الباحث أنّ القراءات البلاغيّة اللاحقة استفادت من الجاحظ، ابتداء من العسكري وانتهاء بابن سنان، فقد أخذا منه أهمّ مكونين للخطاب الإقناعيّ، وهما المناسبة والاعتدال(*)، وما وقع في مؤلّف ابن سنان حسب العمري شبيه بما وقع في بيان الجاحظ ؛ فالمشروع عند الجاحظ هو البيان بجميع أصناف الدّلالة على المعاني من لفظ، وغير لفظ (الإشارة والخط والعقد والنّصبة)، ثم سرعان ما قُويِضَ البيان بالبلاغة ثم قُويضَتِ البلاغة بالخطابة، وتوجه الاهتمام إلى المقام والأحوال، وكان تقديم صحيفة بشر عملاً رمزيّا حاسما ؛ تقديم البديل. يقول العمري: «وهكذا نلاحظ أنّ نظرية البيان – بالانتقال من الشفويّة إلى

---

(**) أما أول مصطلح يراه العمري قد تربع فوق مجموعة من المصطلحات المرصودة لوصف الخطاب من زاوية الخصوصية التعبيرية هو مصطلح **البديع** مع ابن المعتز في القرن الثالث الهجري. وقد ظل هذاالمصطلح في فهم العمري أكثر من أربعة قرون، يوسع دائرة نفوذه لتضم كل صور التعبير ووجوهه اللسانية، غير عابيء بمقامات القول ومقاصده، أي بأبعاد الخطاب التداولية، إلى أنظهر كتاب مفتاح العلوم للسكاكي الذي أزاح البديع عن موقع السيادة والهيمنة، ونقلهإلى الهامش. **ينظر:** محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار إفريقيا للشرق، ٢٠٠٥، (المبحث الثاني من الفصل الأول).

(*) مما له دلالة في هذا الصدد على دور الجاحظ في تأصيل طرح المناسبة، والاعتدال عند ابن سنان الخفاجي تحدثُه عن عيبي **التوعر والوحشية** ونسب القول بهما صراحة إلى الجاحظ، فمن شروط الفصاحة في الكلمة المفردة «أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية» ومنها «أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية» **سر الفصاحة**، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٥٦، ٥٧، ٦٣. وفي شبيه بهذا السياق ناقش ابن سنان الخفاجي قضية وضع الأشياء في غير مواضعها أو في مواضعها – وهو نفسه حديث الملاءمة بين اللّغة والموضوع والمتلقّين، وهو المبدأ الذي انطلق منه الجاحظ – وقد توسع ابن سنان الخفاجي في الحديث عنه ليشمل كل الأساليب التي تستخدم في لغة الأدب. وقد جعل «من وضع الألفاظ موضعها ألا تستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم، لأنّ الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة» المرجع نفسه، ص ١٥٨، ثم يقول – مؤكدا رسوخ قدم الجاحظ في اعتناق المبدأ ومعترفا في نفس الوقت بالأخذ عنه –: «وبهذا شرف كلام أبي عثمان الجاحظ، وذلك أنّه إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتّاب، وإذا صنّف في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين، فكأنّه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره» المصدر السابق، ص ١٥٨- ١٥٩.

الكتابيّة، من الجاحظ إلى ابن وهب – تخلّت عن الجانب الصوتي واهتمت بالمعاني العامة، غير أنّ أثر النّظرية الجاحظيّة ظلّ مهيمنا على البلاغة العربيّة»[١]، وبالنّظر إلى هذا المسار وهذه النّهاية نلاحظ أنّ الجاحظ كان موضوعَ سوءِ فهم من الدارسين بعده سواء أتعلق الأمر بأولئك الذين توجهوا توجها منطقيّا مثل ابن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان، أم من طرف نقاد الشعر؛ فابن وهب وهو الذي تبنّى موضوع البيان بحذافيره مستأنفاً القول فيه يعلن بصريح العبارة أنّ الجاحظ لم يقل شيئاً في موضوع البيان، ثم يتولى هو مهمة مَلْءِ الخانات الأربع في مجال الدلالة التي ذكرناها وهي: الاعتبار، والاعتقاد، والعبارة، والكتاب أي استنباط المعرفة (الاعتبار)، ومعالجتها (الاعتقاد) وتداولها (العبارة والكتاب)[٢](*).

**ب- قراءة بالموافقة والتبنيّ** انصرفت إلى المنجز والمادة الأولية، ولم تهتم بالمشروع أو الخطاطة الأوليّة التي بُنِي عليها كتاب البيان والتبيين، اهتمت هذه الخطاطة بما يهمّ الخطابة على وجه التحديد، أي بجانب المقام، الأداء الصوتي والإشاري، وذلك تحت عناوين أخرى عبر عنوان البيان، نجد امتداد الحديث عن **المقام الخطابي** بحضور قوي للجاحظ، عند **العسكري** في كتاب الصناعتين، ونجد امتداد الحديث عن **الأداء الشفوي** عند **ابن سنان الخفاجي**، في كتابه **سر الفصاحة**[**]، كما نجد صدى لهذه القراءة في بعض شروحات الجرجاني. كما أنّنا قد نجد فكرا نقديّة للجاحظ تتكرر في بعض هذه المصنّفات من ذلك قول الجاحظ: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ، والعربيّ، والبدويّ، والقرويّ، وإنّما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر الألفاظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحّة الطّبع وجودة السّبك، وإنّما الشعر صياغة وضربٌ من التصوير»[٣]؛ حيث نجد القول نفسه يتكرر في كتاب الصناعتين **لأبي هلال العسكري** يقول: «وليس الشأن في إيراد المعاني لأنّ المعاني يعرفها العربيّ والعجميّ والقرويّ والبدويّ، وإنّما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب والخلوّ من أود النّظم والتّأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أنّ يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت»[٤].

---

(١) محمد العمري: الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص٨٩.

(٢) **ينظر:** محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص ١٦.

(*) لذلك فمن المثير أن نجد بعضَ الدارسين المحدثين يبحثون في عمل الجاحظ عن بلاغة شعرية مثل كتاب **البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ** لـ محمد علي زكي صبّاغ، وكذلك بعض الدراسات الجامعية المخطوطة مثل: **الرؤية الشعرية عند الجاحظ**، أطروحة دولة لِـ عبد الرحيم الرحموني نوقشت بالمغرب.

(**) ومن هذا الكتاب استخرج مؤلّفو البلاغة المدرسية في بداية عصر النهضة ما سموه "علم الفصاحة" مستقلاً عن علم أو علوم البلاغة، وهذه مفارقة! **ينظر:** محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص١٣٣.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج٣ / ص٤١.

(٤) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، ص٦٣ - ٦٤

يبدو مما تقدم أنّ الجانب الذي لقي القبول من عمل الجاحظ وطور في المجال البلاغي هو جانب المنجز الذي سمحت به الظروف، في حين عُد المشروع – حسب ما يفيد به العمري – فارغا من دون محتوى خاصة من قبل ذوي الميول المنطقية، وتبدو قضية المشروع والمنجز من القضايا الأساسيّة التي ينبغي الحذر منها عند دراسة التّراث العربيّ، فقد كان الطموح والدّافع المذهبيّ يؤديان أحيانا إلى وجود اختلاف كبير بين الوعود النّظرية والبناء المنجز.وهذا ما أدى بالباحث العمري إلى الاقتناع بأنّ التيار العام كان لصالح الجاحظ، وظهر ذلك في القراءات اللاحقة ابتداء من العسكري وانتهاء بابن سنان، فقد أخذا من الجاحظ أهم مكونين للخطاب الإقناعي، وهما المناسبة والاعتدال(*)، وبقي البيان في معناه المعرفي القريب من المفاهيم السميائيّة الحديثة خارج المسارات التي تندفع في منحدر المجرى الكبير الذي سيسمّى بلاغة، إلى أن قُزم هو الآخر (أي مصطلح البيان) في مفتاح العلوم للسكاكي.

ومن نافلة القول في هذا المقام أنّ العسكري فضّل – بعد ذلك– كلمة محايدة **(الصناعتين)** علامة على مادة مأخوذة، في أغلبها، من الجاحظ وابن المعتز، في حين انحاز ابن سنان، لاعتبارات أيديولوجية ذات كساء معرفيّ لا يتسع لها المقام، إلى مصطلح جديد(**)؛ نقصد مصطلح الفصاحة، معيدا جانبا كبيرا من بيان الجاحظ إلى الواجهة.

إنّ المركز في بيان الجاحظ – ومعاني السكاكي – كما يراه العمري هو **الأحوالُ، والمقاصد**، ولذلك ظلّ البديع ؛ أي صور التّعبير الشّعريّ وأسئلته على هامشهما.

لقد بحث الجاحظ - بهذا الفهم - عن نظريّة للمعرفة فوقع في البلاغة ؛ فكان مساره – حسب العمري – متجها نحو بناء نظريّة للمعرفة انطلاقا من اجتهادات أوائل الأصوليين، مثل الشافعي، واعتمادا على أصداء المنطق الأرسطيّ ؛ فنظر في أصناف الدلالة من لفظ وغير لفظ ؛ ومن ثمّ جعل البيان في الفهم والإفهام، ووسع أصناف الدّلالة لتتسع للفظ، وغير اللفظ (الإشارة، والخطّ، والعقد، والنصبة) في مشروع طموح، وهذا الفهم الذي استبطنه **محمد العمري** هو الذي جعل بعض الدّارسين المحدثين يدخل البيان الجاحظيّ ضمن الدّرس السّيميائيّ على نحو ما فعله **إدريس بلمليح** في كتابه الموسوم **"الرؤية البيانية عند الجاحظ"**، بيد أنّ العمري يرى أنّ الجاحظ لم يتجاوز الإعلان عن المشروع، إذ سرعان ما دبّت البلاغة إليه تجرّ وراءها علم العرب ؛ أي الخطابة.

لقد خنقت البلاغة المشروع البيانيّ عند الجاحظ بفهم العمري فلم يبق منه غير الخطة الأولى والطموح، وقد أشار العمري إلى تنبّه البلاغيين بعده، إلى ذلك فقال ابن وهب – كما مرّ بنا –: «أمّا بعد فإنّك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب البيان والتبيين، وأنّك وجدته إنّما ذكر فيه أخباراً منتخلة وخطباً منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان. فكان عندما وقفت عليه غير مستحق

(*) لإدراك طرح العمري هذا ينظر: محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص٢٧١ - ٢٩١ وص٤٣١ – ٤٤١.
(**) المقصود بالجدة عدم ظهوره قبلُ عنوانا لكتاب في وصف الخطاب الشعري والتداولي.

لهذا الاسم الذي نسب إليه»[١]. إذاً، نصل إلى القول مع العمري إلى أنّ التيار قد جرّ الجاحظ، فاكتشف جزيرة غير التي قصدها في منطلق رحلته، وكانت هي الجزيرة المناسبة لمسار التيار العربيّ، ولذلك لقي كتابه من العناية ما لم يلقه كتاب ابن وهب من القديم إلى اليوم، ولم يهتم القرّاء كثيرا بالمفارقة بين المشروع والمنجز من كتابه[*].

وغير بعيد عن فهم المقولات النقديّة الجاحظيّة بالموافقة والتبنيّ؛ نقف أمام قراءة/نصّ أورده **عبد القاهر الجرجاني**[**] في كتابه"**دلائل الإعجاز**"، وسنحاول فحص قراءة الجرجاني وملامسة معطاها المعرفيّ في مقاربتها للنص الجاحظي. يقول عبد القاهر الجرجاني في كتابه"**دلائل الإعجاز**"[***]: «ثم قال(يقصد الجاحظ): **وذهب الشّيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ و العربيّ، والقرويّ و البدويّ، وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطّبع، وكثرة الماء وجودة السّبك، وإنّما الشّعر صناعة وضرب من التّصوير**" فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني وأبى أن يكون لها فضل فقال: **وهي مطروحة في الطّريق ثم قال: وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا: فأعلمك أنّ فضل الشّعر بلفظه لا بمعناه وأنّه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة**، وأعاد طرفا من هذا الحديث في(البيان) فقال: **"ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارا من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التّحفّظ والتّذكّر، وربّما خيّل إلي أنّ أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيّدا لمكان أعراقهم من أولئك الآباء: (ثم قال) ولولا أن أكون عيّابا ثمّ للعلماء خاصة لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة".**

واعلم أنّهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوه إلا لأنّ الخطأ فيه عظيم وأنّه يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التّحديّ من حيث لا يشعر، وذلك أنّه إن كان العمل على ما يذهبون إليه من أن لا يجب فضل ومزيّة إلا من جانب المعنى وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا واستخرج معنى غريبا أو شبيها نادرا فقد وجب اطراح جميع ما قاله النّاس في الفصاحة والبلاغة وفي شأن النّظم والتّأليف وبطل أن يجب بالنّظم فضل وأن تدخله

---

(١) ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص ٤٩.

(*) غير أنّ المقام لم يكد – وهو الذي حلّ محل البيان بفهم العمري – يستقر في مقعد القيادة حتى اصطدم بالهُجنة اللغوية، وبمفهوم عام للفصاحة لا يفرق بين الأجناس فثارت حوله الشبهات وبدأت عملية التراجع عن المقام لصالح الفصاحة؛ والذي يؤيد طرحنا هو الخطوة التي قام بها العمري في سياق فحصه للنصوص الجاحظية، حيث بيّن أنّ الجاحظ نفسه عارف في الحين أنّ لقمة المقام لم تكن سائغة، كانت باردة من الخارج فحسب، فنفث أكثرها.

(**) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان (بين طبرسات وخراسان)، توفي عام ٤٧١هـ ب **بنظر**: وفيات الأعيان ١/ ٢٩٨.

(***) الجدير بالذكر أنّ نص الجاحظ الذي أثار اهتمام الجرجاني هو: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي، والعربي، والبدوي، والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير الألفاظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضربٌ من التصوير»، للوقوف على السياق التركيبي والتداولي لهذا النص **ينظر**: الجاحظ: الحيوان، ج٣ / ص ١٣٢. وللوقوف على تفاصيل قراءة الجرجاني لنص الجاحظ يراجع: **بشرى تاكفراست**: الدراسات الحديثة ونظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة جامعة ابن يوسف، مراكش، المغرب، العدد الرابع، ٢٠٠٥.

المزيّة وأن تتفاوت فيه المنازل. إذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب ودخل في مثل تلك الجهالات ونعوذ باللّه من العمى بعد الإبصار.لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها، فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنين: قيل لك: إنّ قولنا "المعنى" في مثل هذا يراد به الغرض والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه نحوأن تقصد تشبيه الرّجل بالأسد فتقول: زيد كالأسد، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: كأنّ زيدا الأسد. فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد إلا أنّك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول و هي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنّه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنّه أسد في صورة آدميّ. وإذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع "إن" وإذا لم يكن إلى الشك سبيل أنّ ذلك كان بالنّظم فاجعله العبرة في الكلام كلهُ وَرُضْ نفسك على تفهم ذلك وتتبعه، واجعل فيها أنّك تزاول منه أمرا عظيما لا يقادر قدره، وتدخل في بحر عميق لا يدرك قعره»[١].

إنّ أول ما يعترضنا في قراءة الجرجاني لنص الجاحظ من خلال النص السابق قوله: «ثم قال»[٢]: دليل على أنّ الإمام ينهج **منهجا جداليّا يشبه بالمنهج الجدلي عند المتكلمين**، و هذا طبيعيّ لأنّه نشأ في بيئة كلاميّة صرف، منهجها بسط آراء المعترضين، ثم الردّ عليها. ويُتبع ما سبق بقوله: «وذهب الشيخ»[٣]، ويقصد به أبا عمرو الشيباني.

إنّ أول ما يستوقف عبد القاهر في نص الجاحظ أمران:

- اعتبار الجاحظ أنّ سبيل الكلام هو سبيل التّصوير، والصناعة «إنّما الشعر صناعة وضرب من التصوير»[٤]؛ وهو في نظر عبد القاهر التصاق صرف بالألفاظ و الجانب الشّكليّ من الكلام، حيث إنّ ذلك سلب للمزيّة و الفضيلة، لأنّه محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل و المزيّة في الكلام أن تنظر إلى مجرد معناه، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه ألاّ يكون تفضيل له من حيث هو شعر وكلام وهذا قاطع فاعرفه[٥].

- قولة الجاحظ: «المعاني مطروحة في الطريق»[٦] إذا انطلقنا من أنّ الجاحظ سابق/أستاذ لعبد القاهر فهمنا أنّه يناصره وليس متعصباً ولا مبالغاً كما يذهب البعض، ونلاحظ أنّه يردد الكلام نفسه في كتاب "البيان والتبيين"

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تصحيح الإمام الشيخ محمد عبده و الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، دار المعرفة لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص ١٩٨- ١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٨- ١٩٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ن.

(٤) الجاحظ: الحيوان، ج٣، ص ١٣٢.

(٥) **ينظر:** عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٩٧.

(٦) الجاحظ: الحيوان، ج٣، ص ١٣٢.

قائلا : «كلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات»(١).

لقد عدت كتب البلاغة و النقد الحديثة(*) أنّ الجاحظ من أنصار اللفظ، بيد أنّ قراءة عبد القاهر كما وقفنا عليه، كشفت النّقاب عن طرح الجاحظ فنسب له في البداية كما نلاحظ في النّص أنّه من أنصار اللفظ، ثم أضاف إليه كلمة "النّظم" وهو شيء لم يقل به الجاحظ في سياق هذا النص، وما ذلك إلا نابع من المنهج القرائيّ الجرجاني ؛ بحيث رام بداية بيان أنّ الجاحظ ليس من أنصار اللفظ بعدما فتت النظريّة الجاحظيّة، إذ يرفض الجاحظ أن يكون حسن الكلام من لفظه، ولا في معناه بل في "تنسيقه"، و"تركيبه" وفي تراصه ويتضح ذلك من قوله«والشّعر صناعة وضرب من التّصوير»(٢).

فالمعاني مطروحة في الطريق، بيد أنّ البون راجع إلى الصياغة، فالمسرح واحد ولكن الصّور تتعدد، وتختلف باختلاف الصّياغة، فالمعاني واحدة لا تتجدد، وإنّما تصاغ بأحاسيس ومعاناة جديدة، إنّ الجديد في هذه الأحاسيس والمعاناة هو "الأنا" لأنّ شكلها منفرد وبيئتها خاصّة ومعاناتها مستقلة، ومن ثمّ فالتعبير عن مثل هذا لا يجب أن يكون متشابها.

---

(١) الجاحظ: البيان و التبيين ، ص ١٤٤.

(*) نستثني هنا بعض القراءات النسقية المستندة إلى الأسئلة والخلفيات والإحراجات التي حكمت موقف الجاحظ، منها مثلا قراءة **أحمد مطلوب** الذي استنتج بأن النص السابق لا يعني أنه يميل إلى اللفظ كلّ الميل وأنه يهمل المعنى كلّ الإهمال، يقول: «إنّ الحق أنه عني بالمعنى كما عني باللفظ» **عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده**، ط١، بيروت، ١٩٧٣، ص٩١- ٩٢، والموقف نفسه أيضا تبناه **أحمد بدوي** الذي حرص على تأكيد التوازي في كلام الجاحظ بين قيمة الألفاظ وقيمة المعاني، انطلاقا من النص نفسه، **ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب**، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٣٧، وفي شبيه أيضا بموقف بدوي وأحمد مطلوب يندرج موقف الباحث **عبد الكريم الخطيب** في كتابه: **الإعجاز في دراسات السابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية، ومعاييرها**، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٤، ص ١٦٥ - ١٦٧، ولبيان موقف الجاحظ إزاء هذه القضية على الباحث في تقديرنا ألاّ يتجاهل المواد البلاغية الموجودة في غير البيان والتبيين والحيوان كالرسائل والبخلاء، فهي مواد لا يمكن تغيّبها من يروم دراسة تفكير الرجل البلاغي والأدبي دراسة شاملة، ناهيك أنه لم يثبت الكثير منها في البيان والتبيين. زد على ذلك أنّها إذا توزعت على جل مظاهر تفكيره في الموضوع تعين على تفصيل ما جاء في غيرها مجملا وتوضح ما كان مقتضبا، بل إنها تعدل رأي القائلين بأنّ الجاحظ من أنصار اللفظ، ذلك أنّ الذي قال بالمعاني مطروحة في الطريق، قال في رسالة في مدح التجار وذم السلطان: «شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهئ المعنى، عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جرا»**رسالة في مدح التجار وذم السلطان**، ضمن مجموعة رسائل الجاحظ، ط محمد ساسي، القاهرة، ١٩٣٣، ص١٥٩. ولعله من المفيد في هذا السياق أن نشير إلى الحرج الذي لاحظناه على بعض هذه الدراسات فأصحابها لا يكادون يقرّون رأيا حتى يطلع عليهم في مؤلّفات أبي عثمان رأي آخر أو شاهد مستعص فيدقق بعضهم الرأي نحو ما فعل **شوقي ضيف** في كتابه البلاغة تطوّر وتاريخ الذي نراه يقول: «وأدّاه شغفه بجودة اللفظ وحسنه وبهائه إلى أنْ قدّمه على المعنى» وفي نفس الصفحة يدقق رأيه فيقول: «على أنه لم يسقط المعاني جملة فقد كان يرى رأي العتابي من أنها من الألفاظ محل الروح من البدن» شوقي ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، ص٥٢.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج٣، ص ١٣٢.

وعبارة الجاحظ كما ترى توهم كلّها أنّ الفضيلة في جانب الألفاظ عندما يستقيم وزنها، وتكون سهلة المخارج جيّدة السبك، ويكون الأديب في هذه الحال كمن يقوم بالصّنع وتخيّر الألوان لتناسب بعضها بعضا، أمّا المعاني فهي مطروحة في الطّريق. وقد أوضح عبد القاهر السّر في مجيء عبارة الجاحظ كما وردت عليه، بأنّه «لما كانت المعاني إنّما تتبين بالألفاظ، وأن لا سبيل لترتيبها وجمع شملها إلا ترتيب الكلام في نطقه، فكنّوا على ترتيب المعاني بالألفاظ، ثم بالألفاظ بحذف الترتيب»[١].

فالمراد من قوله: "ذهب الشيخ إلى استحسان المعاني" هو استحسان أبي عمرو الشيباني لقول من قال:

**لا تحسبن الموت موت البلى إنّما الموت سؤال الرجال**

**كلاهما موت ولكن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال**

ذلك أنّ ليس تحت هذين البيتين شيء يستحق أن يستحسن، وإنّما تحيّز لهما الشّيخ لما في البيتين من معنى الوعظ، و التّنفير من ذلّ السّؤال، فالمعاني التي حكم الجاحظ بإطراحها في الطريق هي **"أصول المعاني"** المشتركة بين جملة النّاس عربيّهم وعجميّهم وبدويّهم ومدنيّهم، ومن سوء التّقدير أن يخطر بأوهام أحد النّاس أنّ الجاحظ يسوى بين المعاني كلّها عند النّاس جملة، وهذا ما استبطنه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز[٢]، وأنّ ما يتعارض مع هذا الادّعاء قول الجاحظ: «إنّما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها والمعاني المفردة البائنة بصورها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة»[٣].

إنّ معظم الدّارسين المعاصرين يعتقدون أنّ الجاحظ يضرب كلامه، وينقض بعضه بعضا فهو يزعم أنّ المعاني مطروحة في الطريق، ثم يرجع ليقول إنّ فيها شريفاً، وسخيفاً وكفى بهذا ضلالاً وجهلا[*]، لكن الجاحظ إنّما

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥١.

(٢) **ينظر:** المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج٣، ص ٣١١.

(*) نقصد قراءة **إحسان عباس** الذي حمل قوله **"بوجود معان لا تسرق"** على التناقض، إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص١٠٠. وهو استنتاج كما بيناه سابقا لا يخلو من المبالغة والتسرع فالذي قال بالمعاني مطروحة في الطريق، قال – في رسالة في مدح التجار وذم السلطان: «شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جرا»**رسالة في مدح التجار وذم السلطان**، ص١٥٩.وقد بسط إحسان عباس القضية مكتفيا بإقرار تناقض الجاحظ في موقفه من الشكل بناء على شاهدين معزولين لا نراهما متمحضين لكشف موقف أبي عثمان العام من قضية اللفظ أو الشكل أو الأسلوب، لأن المسألة تتجاوز ما قد يبدو من تناقض ظاهري سطحي بين شاهد وآخر أو قول وغيره، إلى تصوّر أبي عثمان ككل، وبهذا بات من الضروري الإقلاع عن فهم قول الجاحظ "المعاني مطروحة" على أنه غض من المعنى وإعلاء من شأن اللفظ لأن في ذلك فيما يقول **الودرني**: «تعميما لا تبيحه فلسفة الرجل البيانية، فالجاحظ عندما أقر بأن المعاني مطروحة في الطريق فإنما يشير إلى الرصيد المعجمي المشترك الذي يتفق أفراد المجموعة اللغوية في التمكن من معانيه ليحصر التفاضل بينهم في مسالك التعبير عن تلك المعاني، لذلك لا ينبغي عزل ما يقوله الجاحظ عن سياقه وفصله عن تصوّره البياني

قصد بالمعاني المطروحة في الطريق **تلك المعاني التي تشترك فيها كافة الناس والتي هي"أصول المعاني"** ومعرفتها من قبيل الضّروريات، أو هي المعاني المفردة البائنة بصورها كما سماها الجاحظ نفسه، أمّا المعاني الشّريفة فهي تلك المعاني التي لا يمتلك ناصيتها إلا خاصّة من البلغاء والفصحاء.

وأمّا قوله: «إنّما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء و في صحّة الطبع وجودة السبك، فإنّما الشّعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[١].

فهذا من قبيل ما قاله عنه عبد القاهر مدافعا عن العلماء الأوائل – والجاحظ واحد منهم – بأنّهم وصفوا "اللفظ" في ذلك بأوصاف، علما أنّها لا تكون أوصافا له من حيث هو لفظ كقولهم: لفظ شريف وأنّه قد زان المعنى، وأنّه له ديباجة وأنّ عليه طلاوة، وأنّ المعنى منه مثل الوشي وأنّه عليه كالحليّ إلى أشباه ذلك مما يعلم ضرورة أنّه لا يعني بمثله الصّوت و الحرف[٢].

لقد بيّنت قراءة عبد القاهر الجرجاني أنّ كلام الجاحظ ليس على ظاهره وحجته أقوى وأدمغ من هذر بعض الباحثين فنظر في كلام الجاحظ ومقدار صلته بالفصاحة أولا ثم في مقدار صلته بالألفاظ.

و**أول** ذلك قوله **"إقامة الوزن"** وهو وجهان، أولها: أوزان المفردات، وهذا لا يدخل في عداد البلاغة، و**الثاني** وهو مراد الجاحظ، حسب ما يحدّده سياق الكلام، وهو أوزان الشّعر، فعليه مدار كلام الجاحظ في هذا النّص، وهذا أيضا لا مدخل له في البلاغة ولا في الفصاحة، وقوله **"تخير اللفظ"** له وجهان؛ **أولهما**: أنّ اللفظ يتخيره المتكلم حسب معانيه، التي يريد إبلاغها للسامعين، و**الثاني** أنّ التّخير يكون في ألفاظ تؤدي المعنى، ثم تستجيب فضلا عن ذلك إلى أوزان الشعر الذي هو موضوع الكلام. أمّا**"سهولة المخرج"**فليس المراد منه الألفاظ المفردة، لأنّ أكثر لغة العرب وسوادها الأعظم هو سهل مخرجه، وإنّما المراد منه الكلام المركب وهذا لا يحدث ذكره إلا بعد أن يكون الكلام يؤدي معانيه المطلوبة، فأداء المعنى أسبق من تسهيل المخارج، وكذلك قوله في **"كثرة الماء"** بل إنّ الكلام لا يكثر ماؤه ويسلس حتى يكون قد أوفى بمعناه، وأمّا **"صحة الطبع"** والطبيعة إنّما تجود بالمعاني، وليس بالألفاظ.

وأمّا **"جودة السبك"** فهذه هي الصّناعة والصّياغة والنّسج والتّصوير، كلّها أمور عائدة إلى المعاني، لا إلى الألفاظ، فهو حين يرتب معانيه في نفسه ويصوّرها للمستمعين في ألفاظها، تخرج مسبوكة فتظهر فيها صناعته وصياغته، ونسجه وتصويره، فإن أحسن ترتيب المعاني في النّفس حسنت هذه تبعا لها، وإن أساء تلك ساءت

---

العام وأصول تفكيره العقائدي ومن ثم التسرع في جعله رأسا لما سماه بعضهم بالاتجاه اللفظي دون تمييز بين المعنى اللغوي والمعنى البياني العام». أحمد الودرني، **قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، من الأصول إلى القرن٧هـ/١٣م**، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٠١، ٢٠٠٤، ص ٧٦٠.

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ١٣٢.

(٢) **ينظر:** عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، **ص ١٩٤.**

هذه، فإنّما الألفاظ على أقدار المعاني. كل هذه الأمور قد ذكرها الجاحظ وهو يتكلم عن الشعر، لذلك ختم كلامه بقوله: **"فإنّما الشعر.."** وهو قال ذلك تعليقا على اختيار أبي عمرو الشيباني للبيتين السابقين، وهو لم يعب عليه اختياره إيّاهما، لأنّه هو نفسه جعلهما في مختاراته في "البيان والتبيين"، وإنّما عاب عليه أنّه لم يعد في اختياره إلا المعنى، كما أنّه عاب على النّحاة أنّهم لا يختارون من الأشعار إلا ما فيها من إعراب، وعاب على رواة الأخبار اقتصارهم على ما فيها من شاهد ومثل[١].

ما الذي عجز أن يجده الجاحظ عند الرّواة والنّحويين واللغويين ممن وجّه إليهم ذلك النّقد العنيف؟ في الواقع إنَّ الجاحظ أفاد كثيراً من آراء هذه الفئة الأخيرة فيما يتعلق بنقد الشعر، ولكنّه كان يبحث عن شيء آخر فوق هذا، شيء أهملته هذه الفئة؛ لقد كان يبحث عن الائتلاف بين اللفظ والمعنى، وصحّة الوزن، والحذق في الصنعة الشعريّة.

إنّ مقياس الجاحظ في اختيار الأشعار ليس هو المعنى فقط، ولا هو الإعراب فقط، ولا هو الشاهد والمثل فقط، بل هو كل ذلك مع إقامة وزنه، وتخيّر لفظه وسهولة مخرجه وكثرة مائه وجودة سبكه وصحّة طبع قائله... هذا مع عدم إغفاله لأمرين، **أولهما:** هو ما يعود إلى التراكيب التي جاءت في كلام الجاحظ، وأنّها كلّها عائدة إلى الكلام المركب الذي لا يقوم إلا على أساس المعنى وليس على أساس اللفظ المفرد، **والثّاني:** إنّ المعاني التي يقصد إليها الجاحظ هنا هي **"أصول المعاني"**.

إنّ من اعتمد هذا النّص المشهور من كلام الجاحظ وجعله دليلا على انتصاره للألفاظ دون المعاني إنّما اعتقد شبهة تم إسقاطها بمعونة من عبد القاهر ومن الجاحظ نفسه، وإنّما جاء هذا الخطأ من قلة التّدبير وسرعة الحكم وتكرر آفاق القراءة، ولو أنّهم فحصوا وانتبهوا وتابعوا كلام الجاحظ لألفوه يقول: «وقد قيل للخليل بن أحمد: ما لك لا تقول الشعر؟ قال الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني»[٢] والجاحظ ما قال هذا الكلام عبثا بل لأنّ موضعه مناسب له وهو كلام أغفله الباحثون، فالذي يجيء الفراهيديّ لا يرضاه والذي يرضاه لا يجيئه، قطعا ليس هي الألفاظ، لأنّ الخليل موسوعة لغويّة، محيط – أو يكاد – بألفاظ العربيّة مهملها ومستعملها وهو واضع أول معجم في العربيّة؛ وهذا يدلنا على أنّ الجاحظ كان على وعيّ من أنّ البلاغة ليست متعلقة بالألفاظ من حيث هي ألفاظ مفردة، لأنّه لو كان كذلك لكان الخليل أفصح العرب وأشعرها، بل الذي تقتضي الفصاحة هي المعاني ذلك أنّ ما يرضاه الخليل من المعاني الشّعريّة التي تنظم فيها العبارة الرّاقية، إلى المعنى الصّادق لا تتهيأ له وما يتهيأ له منها لا يرضاه، وذلك لما يجد فيه من التّكلف و الخلو من الإحساس الصّادق والبناء الفنيّ الرّصين، وهذا ما خلصت إليه قراءة الجرجاني عندما تحدثت عن المفاضلة بين العبارتين، فالفاصل في ذلك هو التأثير في النّفس والتّلاؤم بين الألفاظ التي هي أوعية للمعاني.

---

(١) **ينظر:** الجاحظ: البيان والتبيين، ج٤، ص٢٣.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ١٣٢.

إنّنا إذا دققنا النظر في قراءة الجرجاني نجد أنّ كلا من الجاحظ وعبد القاهر **ينحوان منحى واحدا**، لقد انتهى الجرجاني إلى نتيجة مفادها أنّ الجاحظ في هذا النّص لم يتطرق إلى اللفظ من حيث هو لفظ مفرد؛ وإنّما معنى المعنى، وما يزيد هذا الأمر إثباتا قول الجاحظ السابق: «إنّما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها..»[1] أليس هذا الكلام يحمل لمحة إلى ما أدار عليه عبد القاهر كتابه **"الدلائل"**؟ أليس فيه أنّ الألفاظ تابعة للمعاني؟ أليست أقدار الألفاظ تابعة لأقدار المعاني، ولا تكون الألفاظ كثيرة ولا شريفة و لا سخيفة إلا وهي في كل ذلك تابعة للمعاني؟ ويقدّر البحث أنّ شيوع فكرة **أنّ الجاحظ من أنصار اللفظ** ترجع إلى أنّ الأوائل الذين جاؤوا بها قد أخطأوا، لأنّ منطلقهم كان هو أنّ اللفظ وحي معجز، وأنّ اللغة توقيف وليست اصطلاحا – وهذا محال – وقد أثار هذا الموضوع **جلال الدين السيوطي**(ت٩١١هـ) في كتابه **"المزهر في علوم اللغة وأنواعها"**، وإذا افترضنا أنّ اللغة موقوفة، فكيف يتجرأ بعضنا على صنع لغات وخلقها، فأين إذا الوقف من هذه اللغات؟ وعليه فكل اللغات من صنع البشر فكيف تربط هذا بقوله تعالى: {وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة...} [البقرة: ٣١]، المقصود هو أنّ اللّه قوى الإنسان على خلق اللغة، وجعله قادرا على ذلك في أي وقت شاء؛ لا أنّه علّمه الأسماء كلها...

في الجزء الثالث من النّص نجد أنّ عبد القاهر لم يكن يطمئن كل الاطمئنان للرأي الذي يعلي من شأن التشابيه الغريبة، أو المعاني النّادرة في الشعر، أو الرّأي الذي يصور الاستعارة في شكلها اللفظيّ فقط دون تحديد مكامن الحسن فيها، ولم يكن يكترث بكل هذه الآراء إيمانا منه بأنْ لا فائدة من إثقال كاهل الشّعراء بما لا طاقة لهم به، لأنّ جماليّة القول الشّعري لا تنحصر في المعنى النّادر، أو التّشبيه الغريب، وإنّما تكمن أساساً في حسن التّأليف والتّناغم بين الأجزاء. وعلى الباحث أن يوجه كل اهتماماته للنظم لأنّه سرّ الإعجاز وموطن جماليّة القول بصفة عامة، على أنّ البحث ينبغي أن يكون على درجة كبيرة من الدّقة والموضوعيّة حتى تتبين عن قرب أهميّة النّظم في إضفاء الجماليّة على المعنى.

وإذا نحن عالجنا هذه القضية بالدّقة اللازمة أدركنا أهمية المعنى في التّأليف أو النّظم؛ فإذا كان النّحو عدة الجرجاني الأولى في قراءة نص الجاحظ، فلا شكّ أنّ التذرع بالعقل، وسبل الإقناع صبغت قراءته، رغم جنوحها إلى الجماليّة الفنيّة، غير أنّ وصفنا لقراءة الجرجاني لنص الجاحظ **بأنّها نحويّة**، لا يفهم منها الخضوع إلى مسائل النّحو الشّكليّة من رفع، ونصب، وجرّ، وتقديم، وتأخير، إنّما نقصد من وراءها: النّحو البلاغيّ أو البلاغة النّحويّة، وبذلك فالجرجاني فيما يقول **فتحي أحمد عامر**: «يعدّ أول عالم أخرج النّحو من نطاق الشكليّة، وجفافه، وسما به فوق الخلافات والتّمحّلات حول الإعراب والبناء. وبعث فيه دفء اللذة الشّعورية والعقليّة معاً. وأخضعه لفكرة النّظم، وأخضع الفكرة إليه»[2]. الأمر الذي أتاح له بناء الذّوق على أسس علميّة، يركب قوانين النّحو وأسرار البلاغة في آن فلا يشتط.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١١.

(٢) أحمد فتحي عامر: من قضايا التراث العربي. النقد والناقد، منشأة المعارف بالإسكندرية (دت).ص ١٩٥.

إنّ الفاحص للفكر النّقديّ الجاحظيّ يلحظ أنّه يؤاخذ الأدباء والخطباء الذين يركبون استكراه المعاني ويجرّونها إلى لفظ هيؤوا رسمه قبل أن يهيؤوا المعنى[١] ويقرّ بأنّ «اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح»[٢]، ولا يكاد يخلو سياق تحدث فيه عن خصائص اللفظ من إشارة إلى المعنى مما يدلّ على ترابطهما في نظريته البلاغيّة وتمسكه بهما جميعا رغم ما قد توهم به بعض النّصوص التي قاربها الدّارسون المحدثون.

إنّ القراءة المتعمقة في آراء الجاحظ تبيّن لنا أنّه كان يبحث عن ائتلاف اللفظ مع المعنى، معتقدا بأنّهما على قدم المساواة والأهمية من حيث إكمال الصورة الشّعريّة. وهو في كتابه (كتاب المعلمين) ينتقد في مجاليّ الكتابة والتدريس، الطريقة المتكلفة في استخدام الألفاظ وإقحامها عنوة لتناسب مَعْنًى بعينه. فالألفاظ المتكلفة عند الجاحظ لا يمكن أن تأتي بالمعاني الواضحة المفهومة، ومن ثمّ فإنّ مثل تلك الألفاظ ليس لها وظيفة تؤديها. وتبعا لهذا ؛ فهو يرى أنّ أجود الكلام هو ما كانت الألفاظ فيه لا تتعدى المعاني المرادة، ومن ثمّ يسهل على السامع إدراكها وفهمها. والذين يقومون باختيار الألفاظ قبل أن يوجدوا المعاني إنّما يفعلون ذلك من أجل اقتناص الألفاظ؛ تلك الألفاظ التي ربّما لا تصلح لتلك المعاني، وهذه الطريقة ليست طريفة وصحيحة كما يرى الجاحظ.

وإلى مثل فهم الجرجاني لنص الجاحظ السّابق ذهب أبو هلال – من قبل – وإن لم يصرّح باسم الجاحظ في هذا الموضع، يقول أبو هلال: «وليس الشأن في إيراد المعاني لأنّ المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنّما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت»[٣].

وهكذا، يبدو لنا أنّ الجاحظ ينظر إلى الألفاظ والمعاني من وجهة نظر تكامليّة. ففي نظره أنّ كليهما على قدم المساواة في تكوين الصّورة الشّعريّة الجميلة والمتكاملة. وأنّه لابُدَّ من استخدام الألفاظ الصحيحة المناسبة لما يناسبها من المعاني. وهذا يعني أنّ لكل معنى لفظاً يناسبه. وهو يرى كما مرّ بنا أنّ المعنى الشّريف يجب أن يُعبر عنه باللفظ الشّريف، والمعنى السّخيف ليس له إلا ما يماثله من لفظ. وإذا كان المعنى المراد التّعبير عنه جاداً فيجب استخدام الألفاظ الجادة، وإذا كان المعنى هزلاً فيعبر عنه بألفاظ الهزل، وإلاّ فإنّ المعنى لن يكون واضحاً ولا تاماً. ويرى الجاحظ أنّه طالما كان هناك طبقات مختلفة من النّاس، فكذلك هناك طبقات مختلفة من الكلام[٤].

---

(١) الجاحظ: رسالة في تفضيل النطق على الصمت، مجموعة محمد ساسي، ص ١٥٩.
(٢) زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول، دار الشروق ط٣، ١٩٨١، ص ٢٥١.
(٣) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، ص٦٣ - ٦٤.
(٤) **ينظر:** الجاحظ: البيان والتبيين، ٢٥٥/١.

لقد أبان الجاحظ عن رأيه حول اللفظ والمعنى بكل وضوح وبطريقة مباشرة وصريحة وذلك حينما نصح الكتاب بتجنب السّوقيّ والوحشيّ من الألفاظ وحذّرهم من تضييع الوقت في البحث عن غريب المعاني، ودعا إلى الاعتدال والاقتصاد وسلوك الطريقة الوسطى لتجنب الوقوع في الصّعاب[١].

لقد أبدت القراءة العربيّة فيما يقول الباحث حبيب مونسي، وقراءة القراءة شكل التّناص Intertextualité «واضحاً جليّاً، أو متماهياً في ثنايا العروض، يمكن إرجاعه إلى أصوله الأولى التي أنبتته»[٢]. لذا كانت القراءة – والقول لعبد الملك مرتاض –«هي هذا الامتلاء المعرفيّ الكريم الذي يفيض من قريحة صاحبه، فيوشك أن يعوم النّص في نص آخر، له به عميق الصّلة، وله معه حميم العلاقة»[٣] خاصّة وأنّ المتأخر، تنتهي إليه جهود سابقيه، صافية، تتيح له إمكانيّة المقابلة والموازنة، وإدراك الخطل فيها، ومن ثمّ تسعفه أدواتها على دمجه في قراءة شموليّة عامة يكسوها بتميزه الخاص. وقد ألفينا ذلك الحال جلياً في قراءة "عبد القاهر" لقراءة الجاحظ لبيتي أبي عمرو الشيباني، حيث، أضفى عليها مظهر الموضوعية، بعيداً عن التّعصب والميل، ما دامت القراءات لم تستنفد ولن تستنفد الصّنيع الأدبيّ والبلاغيّ الثريّ.

(١) **ينظر:** الجاحظ: الحيوان، ١/١٣.

(٢) حبيب مونسي: القراءة والحداثة مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠، ص ٣٥.

(٣) عبد الملك مرتاض: تقاليد القراءة وأصولها في الأدب العربي، حوليات الجامعة للبحوث الإنسانية والعلمية، وهران، ١٩٩٥، ص ١٧، ١٦.

## قائمة المصادر والمراجع:


١. ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٩.

٢. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق حجر عاصي، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٣.

٣. ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، ١٩٧٢

٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨.

٥. الجاحظ:

٦. الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٠٢.

٧. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٠٣، نشر مؤسسة الخانجي، القاهرة، دت.

٨. الرسائل: مجموع كراوس والحاجري، القاهرة، ١٩٤٣.

٩. موسوعة محمّد ساسي، القاهرة، ١٩٣٣.

مجموعة عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٦٤- ١٩٦٥.

١٠. العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، ط٢، القاهرة، ١٩٧١

١١. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تصحيح الإمام الشيخ محمد عبده و الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، دار المعرفة لطباعة والنشر، بيروت، لبنان

١٢. نقد النثر: المنسوب إلى قدامة بن جعفر، تحقيق عبد الحميد العبادي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨٠

١٣. أحمد مطلوب عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ط١، بيروت، ١٩٧٣

١٤. أحمد فتحي عامر: من قضايا التراث العربي. النقد والناقد، منشأة المعارف بالإسكندرية (دت)

١٥. أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبةنهضة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٠

١٦. حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط٠٣، ٢٠١٠، .

١٧. شوقي ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط٩، د ت،

١٨. عبد الحكيم راضي: الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، ط٣، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦،

١٩. عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية، ومعاييرها، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٤،

٢٠. عبد الملك مرتاض: تقاليد القراءة وأصولها في الأدب العربي، حوليات الجامعة للبحوث الإنسانية والعلمية، وهران، ١٩٩٥

٢١. محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣.

٢٢. محمد العمري: الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، ٢٠٠١، دط،

٢٣. محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩،

٢٤. محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار إفريقيا للشرق، ٢٠٠٥،

٢٥. محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ٠٩، ٢٠٠٩،

٢٦. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، ط٢،

٢٧. بشرى تاكفراست: الدراسات الحديثة ونظرية النظمعند عبد القاهر الجرجاني، مجلة جامعة ابن يوسف، مراكش، المغرب، العدد الرابع، ٢٠٠٥.

٢٨. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، ط٠١، بيروت، ١٩٧١.

٢٩. الودرني: قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، من الأصول إلى القرن٧هـ/١٣م، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٠١، ٢٠٠٤،

٣٠. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول، دار الشروق ط٣، ١٩٨١

٣١. حبيب مونسي: القراءة والحداثة مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠

**بالفرنسية:**

Charles pellat: La formation de Gahiz et le milieu Basrien, Paris, ١٩٥٣, P٨٥.

❑❑